الضياء بهرا

خواطر تاريخية

عدنان الحسني

"محطات" ج ٣

الثقافة

والذي لا شك فيه هو ان الاحداث لابد ان تكون مؤثرة في نسق التفكير فيقود الى الانفعال تارة عندما يكون الحدث صاخبا او الى الموضوعية عندما يكون الحدث ذا طابع مستقر.

ولكن الثقافة بتعريفها العلمي الصحيح يجب ان لا يؤثر فيها كون الحدث صاخبا او مستقرا فيكتب المؤرخ على اساس الحرفية وموضوعية الحدث لا ذاتية الحدث، اذا نظرنا الى التاريخ بكل تفاصيله ظاهرة كانت محسوسة مثل الآثار او غير مرئية كالاحداث السردية ضمن مؤشرات تدوينية فسوف نلاحظ ان كلا الشكلين من تلكما الصنفين يبقى مجردا عن المرئي من الفعل، والذي يقوم بترسيخ الفكرة في صلب الحدث عنصر هام لا مناص منه هو الحيادية في الحكم على الحدث باشكال موضوعية ذاتية.. الا انه لابد للحدث المدون من ان ياخذ بعض التاثير غير المؤثر على جوهر وشكل الحدث.. ولكن على الترتيب في السرد او ظاهر السرد فتكون عبارة ما بدل اخرى هي في نفس النسق السردي لا تؤثر على تفاصيل ذلك الحدث وان كانت مؤطرة بانفعالات المؤرخ ولكن ليس بالطريقة الحتمية في تغيير نسق تلك التفاصيل بتسلسلها.. وحقيقتها.. اذن فان السرد يجب ان يتوافق مع الحدث بمضمونه العملي وشكله الفعلي... فياخذ الحدث صفة المصداقية ويبتعد عن المبالغة.. والمؤرخ المثقف الملم بكل التطورات الحاصلة من حوله لا بالشكل التخصصي بل بالعام المعلوم غير السطحي..

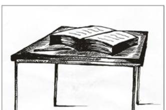

هذا المؤرخ يستطيع ان ينقل الحدث بالشكل الذي يعطي الحدث نفسه صفاته واشكاله المنتمية الى جوهر الواقع الحاصل ودراسة الاسباب الموضوعية لا في حيثية الحدث نفسه بل في كيفية نقل التفاصيل وايصالها بالشكل الذي يتلاءم مع متطلبات الاسباب والنتائج لذلك الحدث في وقته.. فيدرس هذا المؤرخ العلة الغائية والعلة السببية واستطراد النتائج او انعكاسها لما آلت اليه الامور لاحقا فقد نظر الفلاسفة الى ابعاد الحدث التاريخي واخذوا يتناولونه من كل جانب في صلب تاسيس ذلك الحدث وفلسفوا معطياته ودرسوا اسبابه ووضحوا نتائجه فكان التاريخ فصلا لتمييز النتائج السلبية والايجابية وما يستفاد من ماهية ذلك الحدث اما المؤرخون فلم يولوا تلك الدراسات جل اهتماماتهم بل راح المؤرخ يضع الحدث في قالب ذي صلة بذلك الحدث دالا عليه باشكاله مبينا تفاصيله بكل اشكالها ويترك الحكم للمتلقي.. متناسيا بعض هؤلاء ان الشرح الوافي لكافة الاشكال المحيطة بذلك الحدث ونقل الاراء عن الذين تناولوا ذلك الحدث مع بيان الظروف التي احاطت بتلك الفترة التي نقل فيها اصحاب تلك الاراء اراءهم حول الحدث التاريخي هو عنصر مضاف لحالة الاستيعاب السردي واستيعاب المتلقي رغم تفاوت الازمنة.. فيكون المؤرخ ذا مصداقية غير منحاز لظروف قد تؤثر على واقع الحدث بغية الوصول الى مبتغى معين..

شمّورامات او سميراميس

تحفّ بها آساطير يونانية وارامية وارمنية

الجزء الاول

أ.فؤاد يوسف قزانجي

لايمكن التمتع بجمال الشرق وسحره الا من خلال اساطيره الملونة التي تختلط فيها الحقيقة بالخيال وتمتزج بها البطولة بالاحلام المعبرة عن رغبات الشعوب الدفينة ومسيرتها المعبقة بعطر التاريخ وعمق التراث وجسامة الاحداث.

يحدثنا التاريخ اولا عن شخصية ملكة عراقية آشورية هي شمورامات استناداً الى ابحاث المؤرخ المتميز سامي سعيد الاحمد والتي نوجزها على النحو التالي وقبل التحدث عن الاساطير الجميلة التي رافقتها:

توفي الملك الآشوري شمشي ادد الخامس "سنة ٨١١ق.م" مخلفاً ولداً واحداً قاصراً هو ادد نيراري الثالث الذي خلفه على عرش الامبراطورية الآشورية التي كانت في عز مجدها حيث كانت تضم عدا بلاد مابين النهرين سوريا بضمنها العديد من الممالك الارامية التي كانت قائمة في القرن التاسع قبل الميلاد وكذلك جزء من فلسطين ومملكة اراراتو التي هي دويلة ميتانية ومن ثم اصبحت ارمنية. وحيث ان الامير ادد كان قاصراً مدة قصيرة دامت ثلاث سنوات فقد تولت مقاليد الحكم الملكة شمورامات التي كانت وصية على الامير ادد.

اما شمورامات فهي على الارجح ابنة الملك "هيّا" عاهل مملكة صمعل "سمأل" الآرامية التي كانت ذات اهمية ستراتيجية وتجارية بارزة اذ كانت مركزاً لتبادل البضائع القادمة من بلاد الرافدين وفارس مع البضائع السورية والفينيقية. وقد قدم الملك هيّا ابنته شمورامات والبالغة من العمر ست سنوات هدية الى الملك شمشي ادد الخامس لتتربى في بلاطه وذلك حينما كان يقدم له الجزية، توثيقاً لعرى الصداقة بين مملكتي صمعل وآشور. ويعني اسم شمورامات "الاسم الرفيع"، ويرجح ولادتها حوالي سنة "٨٥٠ق.م." كما يرجح ان الملك شليمنصر الثالث قد زوجها عند بلوغها الخامسة عشرة من ولي عهده وولده الاكبر آشور دايان أبال. ولابد ان شمورامات كانت فعلا في غاية الجمال لاختلاط الآراميين بشعوب متعددة في مدينة تجارية مزدهرة. ويظهر ان الزواج كان ناجحاً حيث لم نقرأ في الحوليات الآشورية المتوفرة عن ثورة قامت بها صمعل ضد آشور طيلة حكم الملك شليمنصر الثالث. ولا نعرف ان شمورامات انجبت ولداً من آشور دايان أبال. وعندما تمرد على والده، قتل في وسط التمرد الذي قاده. وبعد ذلك تزوجت شمورامات من الملك شمشي ادد الخامس، وكان لها انذاك اربعون عاماً، فانجبت ولي عهده ادد نيراري الثالث وذلك في عام ٨٢٤ ق.م. وتوفي والده وكان عمره ثلاثة عشر عاماً، الى جانب كون شمورامات وقتذاك امرأة ناضجة ذات خبرة مكنتها من ادارة الدولة بنجاح خلال فترة وصايتها على ابنها وحكمها الدولة الآشورية المترامية الاطراف. وقد لمع خلال مدة وصايتها القائد نركال ايليا "لعل اسم ابيه الآرامي يدل على اصله" والذي كان خلال حكم الملك شليمنصر الثالث حاكما على مقاطعة ارابخا "كركوك" ثم عينته شمورامات قائداً لقوات الجيش "تورتان" مما يدل على حسن اختيارها. كانت اولى العمليات الحربية التي اشرفت عليها هي القضاء على تمرد القبائل الميدية غرب ايران وذلك في سنة "٨١٠ ق.م." وفي السنة التالية سحق الجيش باشرافها حركة عصيان ضد الدولة الآشورية والتي قامت بها مدينة كوزانا عاصمة مملكة بخياني الآرامية، ثم ضمتها الى الدولة كمقاطعة آشورية تابعة. وقد عينت "منوكي آشور" حاكماً عليها. كما واكتمل خلال مدة وصاية شمورامات التي استغرقت ثلاث سنوات الحاق منطقة الجزيرة بدولة آشور. وقد شنت في السنتين التاليتين ٨٠٨ - ٨٠٧ ق.م. حملتين ضد قبائل "المنّاي" في شمال شرق جبال زاكروس اعتماداً على قائد الجيش نركال ايليا. كما نقرأ اسمها من على رقيم يشير الى انها دحرت هجوماً لقبائل كلدية ثائرة في جنوب العراق.

كانت علاقة شمورامات بالدويلات والممالك الآرامية في سوريا طيبة للغاية خاصة مع امارة دمشق حيث كان يحكم فيها الملك بار حداد لعل ذلك يعود الى اهتمامها بمسقط رأسها وسعيها لتقوية الاواصر بين آشور والدويلات الارامية."١" ويذكر الاستاذ الاحمد بان مدة وصاية شمورامات قد تميزت بالاهتمام بالاله نابو اله المعرفة والكتابة الذي انتشرت عبادته في نينوى. واصبح نابو الاله الكثر رفعة حتى طغى نفوذه وعبادته على اله آشور نفسه بل اصبح في نينوى الاله الوحيد ويمثل جميع الالهة، مما يدل على بدايات طلائع التوحيد متمثلة في التأكيد على عبادة الاله نابو وحده، والموضحة في الكتابة على تمثاله المكرس لشمورامات وولدها، قد يعتبر بداية تباشر التوحيد في العراق قبل طلائع التوحيد في مصر المتمثلة في انشودة آتو "قرص الشمس" للملك اخناتون."٢"

المصادر

"١" الاحمد، سامي سعيد. سميراميس. بغداد: دار الشؤون الثقافية، ١٩٨٩ "من ١٨٧ - ١٩١".

"٢" الاحمد، سامي. المصدر السابق "١٩٣ - ١٩٤".

"٣" ديودوروس الصقلي مؤرخ روماني يكتب باليونانية عاش في القرن الاول متاثرا بالكتابات اليونانية التي سبقته خاصة الكتابات التاريخية التي كتبها هيرودوتس وكتيسياس وغيرهما. الف كتابه "المكتبة التاريخية" ووصلنا منه اجزاء.

"٤" اورو، ميخائيل. شميرام. بيروت، مكتبة المعارف، ١٩٥٨، ٢٣٦ص "ص ٤٠ - ١٠٠".

"٥" اورو، ميخائيل المصدر السابق، "ص ١٩٩ - ٢٣٠".

الجرة العراقية

ويداء سامي احمد

موضوع استوقفني.. عرض على قناة الجزيرة الوثائقية.. الموضوع كان يعرض الحضارات القديمة وما وصلت اليه من تطور في العلوم.. وهنا يكمن موضوعي..

الجرة العراقية

ذكر الراوي مستعرضاً بالصور الوثائقية انه قبل اكثر من ٤٠٠٠ سنة اخترع العراقيون القدماء الجرة وهذه الجرة عبارة عن جرة فخار عادية مملوءة بالخل كمادة حامضية وادخل بها قطبان من مواد معينة يمثل احدهما الكربون والاخر يمثل الزنك على ما اذكر ثم تغلق باحكام ويخرج من الاقطاب شيء ما اشبه بالسلك.. وكانت تستخدم هذه الجرة في ذلك الزمن البعيد لتوليد طاقة كهربائية بمعدل فولت واحد تقريباً. . وكانوا يستخدمون هذه الطاقة القليلة لطلاء المعادن بالذهب والفضة بوضعها بماء الذهب او الفضة ثم ادخال سلك الجرة في الماء وتتم بذلك عملية طلاء الحلي وغيرها.

وماتت هذه الاختراعات مع اندثار الحضارات القديمة وعادت الى الحياة مع ميلاد حضارات اخرى ونسبت اليها ولكن البحوث اثبتت نسبتها الى ما اسموه جرة العراق في ذلك البرنامج.

وهذا ما هز قلمي وحركه للكتابة.. فالعراق الذي حركت فيه اول فولت للطاقة الكهربائية خال الان من الكهرباء.. وشعبه يدعو الله كي يبعث لهم نسمة من الهواء قد تحرك لهم المروحة وترحمهم من حر شهري تموز واب.. لانهم قطعوا الامل في عودة الكهرباء..

ولان هذه الجرة التي انتجت الطاقة الكهربائية ماعاد فيها الخل ولا منتجات الطاقة الاخرى.. بل انها تملأ الان بالبارود ومنتجات الدمار وتحول الى قنابل وعبوات ناسفة.. وجرار العراق التي كانت تعبأ بالزيت والمؤن الغذائية اصبحت مملوءة الان بالجوع والبؤس وصرخات الاطفال.. وجرار العراق التي ملئت بالعطور الزكية تفوح منها الان رائحة الدم والموت..

وحتى.. حتى الاربعون جرة التي اختبأ فيها الاربعون حرامي.. لو فتحناها اليوم لوجدناهم اربعون من الطاهرين اذا ما قارناهم بسارقي هذا الزمان وخونته..

اه .. ياجرة بغداد اخاف ان انظر في اعماقك واخاف ان امد يدي فيك.اخاف ان يكون ما في قعرك اسوأ مما عرفناه لحد الان.. وجرة العراق مازالت موجودة الان.. ومازالت تحمل كل الالوان.. وتحمل الكثير من المفاجآت التي سيفاجئنا بها الزمان.. لكن قلبي الذي حمل جرحك رحالا يحمل الكثير من الامل والكثير من الحب والوفاء لك..

حبيبتي بغداد.

هو "الاخر" في وطني وكيف اتعايش معه؟

توفيق التميمي

سؤالان ملحان تكتسب اهميتهما وفرضيات الاجابة عليهما من قراءة موضوعية لتجارب التعايش والاحتراب بين المكونات الوطنية لوطن ما أكتسب شرعية وجوده وكينونته عبر تاريخ طويل من التقاسم في الوجود والمصير المشترك وقواسم وطنية اخرى.

تبدأ معضلة الرؤية للاخر وطريقة التعامل معه عندما يحاول المشروع السياسي ولمآرب تتعلق بطبيعة هذا المشروع وهويته بوضع اوفتعال الفواصل والمسافات الوهمية وترسيخ صورة مضللة لكل مكون وطني بأزاء المكون الاخر حتى تكون هذه الرؤية مضببة وملتبسة لما يراه "الاخر" في "الاخر" المختلف معه باللغة او اللون او الدين او المذهب او الموقف الايدلوجي او العقيدي او أية تصنيفات اخرى يحتملها الاخر في المعنى والسلوك ولكنه يشاطره العيش والمصير المشترك على وطن مرسوم على خرائط الجغرافية السياسية الواقعية فتحدد وفق هذه المتغيرات طبيعة العلاقة مع الاخر أن كانت احترابا او تعايشا اواندماجا اواحتواءا حسب هوية وطبيعة النظام السياسي ومرجعياته العقائدية..

الآخر في النظام الديمقراطي

احترا م الاخر والاصطفاف معه على مسافة واحدة من منظومة الحقوق والمسؤولية المجتمعية وأحتواء دائرة المواطنة الكبرى للدوائر والانتماءات الفرعية والشعور بالعدالة الاجتماعية هي ابرز علامات العافية وتحقيق النجاح للمشروع الديمقراطي في بلد ما.

كما هي ابرز علامات النجاح في نجاح التربية الديمقراطية وتغلغلها في البناء الاجتماعي وتسجيل انتصار للعقلانية وقيم التعايش على قيم التعصب والتناحر التي تمزق نسيج المجتمع وتهدم بناء الدولة ومؤسساتها وتعبث بسلامها.

لربما تتعدد حلقات الاخر الافتراضية حتى يصبح من الصعب الامساك بحلقاتها التعددية ابتداء من الاختلاف بالالسن والمعتقدات والوان البشرة ولكنات اللهجات ولون الازياء والاعراف والعادات الاجتماعية ولكن تظل هذه الاختلافات الفطرية والمكتسبة بالولادة وقدر الحياة معرضة للاهتزاز والتصادم وتهيئة المناخات الملائمة في احالتها لمشروع من الاحتراب والتباغض ان لم يضع النظام السياسي في برامجه التربوية وخطابه الاعلامي مواثيق وضمانات في تحديد نوع العلاقة او المسافة الفاصلة بين هذه الدوائر المنفتحة على دائرة الوطن الكبيرة في نطاق المصلحة الوطنية التي تتحدد بمفهوم المواطنة والدولة الحديثة التي تميل للسلم والامن المجتمعي وبناء دولة القانون والمؤسسات.. مواثيق تجعل خطوط التقارب والاندماج بين المكونات الوطنية اكثر من مسافات التباعد والتنافر.

لايقتصر الاثر الايجابي للتعايش وفق هذه المواثيق والضمانات مع الاخر في نطاق الوطن الواحد على بقعة محدودة بل يمتد ذلك الى مناطق الاقليم واوطان الجوار. فيعم السلم وتتصاعد وتائر التنمية وتنتعش اواصر الانسانية بين مختلف الشعوب وتتهيئ سبل النهوض الاقتصادية والمعرفية وسط مناخات التعايش السلمي في نطاق الوطن الواحد الذي يكفل تحقيق قيم الكرامة الانسانية لمواطنيه دون تمييز وتنتعش فرص التقدم الانمائي.

وبخلاف ذلك وبغياب الوعي بمزايا التعايش الوطني فان الصورة تكون سوداء والمستقبل مفتوح لاحتمالات التصادم والاحترابات التي تستنزف الطاقات وتهدر الرأسمال البشري للامم والشعوب.

ألاخر في الوطن العراقي

في العراق يشكل التنوع العرقي واللغوي والديني منجما بشريا وثروة وطنية بددتهما اخفاقات متواصلة للمشروع السياسي العراق منذ بواكيره في عشرينات القرن السابق رافقته افات اجتماعية من تسيد قيم الجهل وثقافة التعصب البدوية ساعد ذلك في اصطناع اوهام في الرؤية عمقت الفواصل بين المكونات الوطنية واصطنعت لها فضاءات من العزلة حفزتها على رسم صورة واهمة عن الاخر الذي يقاسمه الوطن والمصير المشترك ويختلف معه باللغة والدين والقومية والمذهب فكانت النتيجة تاريخا من الحروب والمعارك الطاحنة التي رفعت رايات التعصب وتشويه الاخر الوطني.

برع النظام السياسي في العراق بأستثناءات نادرة وقليلة في ترسيخ الصورة السلبية والزائفة "للاخر" عبر ثقافة حكومية مقننة تربويا واعلاميا وثقافة شعبية متدوالة ذات تاثيرات وفعالية اكثر ضررا من الاولى ووسائلها الاشاعة الماكرة والنكتة الخبيثة والاعلام الاحادي الموجه بتجاه تكريس الانظمة واشاعة فلسفتها الشوفينية وتبرير مظالمها وحروبها التي تشعلها بمبررات قومية او تعصبية. ومن الطبيعي ازاء هذه الخلفية والتراكم التاريخي تنحسر ثقافة المواطنة والوعي بمنظومة الحقوق والواجبات وتستديم الدكتاتورية. لفترات طويلة في مثل هذه الحاضنات من التجهيل والتغييب. اذ تحرص الانظمة الدكتاتورية على رسم صورة مزيفة ومشوهة عن الاخر المخالف لسياستها الشوفينية والتعصبية فتلفق عبر وسائلها توصيفات التخوين الوطني والغباء الاجتماعي لشرائح وطنية على حساب شرائح اخرى وتعمد للتشكيك باصالة الوجود التاريخي للقوميات والاعراق المكونة للامة الواحدة المتعايشة على ارض مشتركة وما الى ذلك من اساليب وانتهاكات معروفة في سجلات وتجارب الانظمة الدكتاتورية ذات السياسات القمعية والاقصائية لشعوبها وقومياتها المكونة للاوطان التي تتحكم بمصائرها واقدارها ثلة من الفاشيين وحفنة من المستبدين .

في جنوب العراق يسكن العراقيون المندائيون منذ سنوات طويلة يشاركهم العرب الشيعة في مناطق الاهوار وسهول الجنوب الفسيحة وقليل من العرب السنة في الشمال تتعقد اللوحة البشرية وتتناغم العقائد والالسن والاديان في شمال الوطن لتصبح صورة الاخر على درجة كبيرة من التعدد والتنوع على سجادة الامة العراقية الملونة .

شهدت هذه المكونات فيما بينها علاقات من التوتر والاحترابات والكراهية لاسباب طارئة وتدخلات خارجية تنفيذا لمصالح سياسية ضيقة.

استخدمت في هذه الاحترابات والفتن اشكال من الدعاية النفسية واجهزة ومؤسسات في الاعلام والتربية والمخابرات وكانت النكتة هي الوسيلة الاكثر تداولا في تشويه الاخر الوطني ورسم ملامح الزيف عليه واسقاط تصورات السلطة وافكارها الممهدة لقمعه وتبرير ابادته وتغييب مستحقاته الوطنية وحقوقه المشروعة في الثروة والمشاركة في ادارة الدولة والمجتمع .

الدرس العالمي في التعايش

حفل تاريخ الشعوب بسلاسل طويلة من المعارك الطاحنة والحروب الضارية بين مكوناتها الوطنية بسبب عرقي او قومي او مذهبي الا ان ذلك كان درسا قاسيا لهذه الشعوب لكي تبتكر طرقا وجسورا للتعايش وترسيخ قيم المواطنة وبناء الدولة على اسس عصرية أنتجت وتائر التنمية المتصاعدة وأشاعت قيم السلام

وبذلك نجحت بتحقيق الدولة بمفهومها المعاصر.

بعد نضالات وصراعات مريرة حتى تحقق لها الخيار الديمقراطي الضامن لدولة المواطنة وتحقيق دولتها المؤسساتية.

وانحسرت الحروب الدينية التي استنزفت وعوقت المسيرة الحضارية في الدول التي خطت خطواتها الواثقة في المشروع الديمقراطي. فغدا الدين محصورا في فضاءات ومجالاته المقدسة بعيدا عن التحكم او التدخل في الدولة او مسارات المجتمع المدني وتحققت نجاح المعادلة التي تقول الوطن للجميع والدين لله وهكذا اصبحت دول تختلف في قومياتها والسنتها واعراقها نموذجا للاستقرار والرخاء وملاذا للهاربين من الحروب الطائفية والعرقية في الدول التي مازالت تعيش بقانون الغاب وقيم التعصب البدائية.

اكاذيب وافتراءات عن الاخر

شاع بين العراقيين بان الايزيدي العراقي لايحب الاستحمام ويقدس الشيطان ويعبده نكاية بالمسلمين الذين يتعوذون من شره ليل نهار وكذلك ثمة من يفترى على المندائيين ويصفهم بعبادة الاوثان والكواكب والماء.

وعن الشيعة بانهم يعبدون قبور ائمتهم واوليائهم ويمارسون فواحش خلف كواليس زياراتهم المقدسة والمسيحيين يعبدون مسيحهم من دون الله الواحد القهار والسنة متعصبون ومستسلمون لاولياء امورهم من الحكام الظلمة والكرد يمتازون بالبلاهة والغباء وهكذا تستمر دائرة الافتراءات وتتواتر قصة التشويه المتبادل للاخر الذي يقاسم في الوطن والمصير تشيع مثل هذه الاكاذيب وتتوارث عبر آلية ماكرة ووسائلها النكتة والحديث الديني المزور والوقائع التاريخية الكاذبة في كل ذلك يغدو المواطن موضوعا مهدورا في معركة يتحمل تبعاتها لوحده ليترك ارباحها لتجار السياسة وسماسرة الاديان.

كيف نتعايش ؟

لربما ما ترسمه الذاكرة الشعبية لكل مكون عن الاخر في الاطار الوطني لايسبب حربا اهلية مباشرة او ينشب حريق فتنة ولكنها مقدمات في تشويه الصورة تصلح لبدايات حروب طويلة .ولتفادي نتائج هذه الحروب المتوقعة .

يكمن الحل بالبحث عن وسائل التعايش وفق اسس المشترك التاريخي والمصيرى الموحد ونبذ الخلافات التاريخية وطي سجلات التنابز بالالقاب والتضاد بالحكايات التاريخية المفتعلة والمزورة بفعل فاعل لتجهز قبضة الماضي على وجه الحاضر المشرق وتهدم افق المستقبل وبشائره القادمة لايمكن ان يكون درس التعايش مع الاخر هو مجرد نصائح مبتذلة او توصيفات انشائية او تبشير بديمقراطية غريبة عن واقعنا نزلت بمظلات أجنبية على واقع بداوتنا .

ولكنها دروس من اعوام حروب وتجارب مريرة استنفزت الكثير من الدماء والثروات ليكتشف الجميع عقب جولات ضارية من الحروب بان الافتراءات بحق الاخر محض اوهام وان الاخر هو انا بذات الهوية والانتماء والاحساس الذي يبكيه تمزيق اوصال الوطن وسرقة امواله ونهب ثرواته.

وطن تتوزع مساحات فرحه واتراحه على الجميع دون تمييز بين قومية او عرق او مذهب، وطن تتوزع فيه مدارس واحدة ومصانع واحدة وعدالة سماوية يبشر بها اله واحد في اديرته وصوامعه وجوامعه وارض تكابد عليها اجدادنا الاوائل الضيم والحزن كما تقاسموا الشقاء والالام .

بهذا الطريق فقط نلحق بالامم المتحضرة ونطوي سجل الحروب الخاسرة للطوائف والاعراق والمذهبيات.

* موقع كتابات.

ضاع أبتر بين البتران*

قيس مجيد المولي

كان يكفيني جليسي في الطائرة أن لا أدقق بوجوه الآخرين فقد تعارف بي حال جلوسي مقدما للنفسة مباركته لها كونه سيجد بي على حد قوله أنيسا، لأن لديه أحاديث يريدُ أن يتحدث بها وهو مشتاق للكلام، ويكاد يختنق وبادرني على الفور وقبل إقلاع الطائرة من أنه كان بحارا على ظهر سفينة عراقية رست في العام ١٩٨٦ في أحد موانئ البحر الأبيض المتوسط. حيث قرر ترك السفينة وتسليم نفسه للسلطات المالطية طالبا حق اللجوء الإنساني، وبما أنه يملك مهارات بحرية فقد عمل على الفور في إحدى شركات الملاحة مشرفاً على الماكنات الضخمة التي تسير هذه الأجساد العملاقة.

وكعادة الأغلبية من المهاجرين فقد أحب إحدى المالطيات وتزوجها وأضاف لي والطائرة لم تقلع بعد بأنه يشكو حبها وخروجها اليومي إلى البحر ومداعباتها للبحر أكثر من مداعباتها أطفالها، بل ونومها مدفونة في رماله. وشكى لي عن ذهابها لأصدقاء لها وانتبهت إليه هذه المرة بعد أن تغير أسلوبه في طرح موضوعاته وبدا يتلفت وراءه كي لايسمعه أحد.

ولكي أشجعهُ وأبين له اهتمامي بقصته تلك قلت له بأن لكل مجتمع من المجتمعات خصوصيته وإذا التقى مجتمعان متضادان فأن الغلبةَ ستكون لمن يستطيع أن يقدم المثال الأفضل على صحة معارفه وقيمه وإنسانيته إزاء أي نقيض..

قاطعني وقال: لكني قدمت لها المال والاحترام وإلى الآن تذهب إلى البحر وتزور الأصدقاء، أدركت أن المسافة مابين المجتمعات لن أستطيع تقليصها في ذهنه من مجتمع يحافظ على أرث قد يكون عفا عليه الدهر بل عليه أكل الدهر وشرب وبين مجتمع يجد في أي ممارسة شكلاً من أشكال الحرية والتحرر من القيود، وبشيئ من التودد له قلت له: إذهب معها إلى البحر وأدفن جسدك في رماله كما تفعل هي وستشفى من آلامك. قال لي مشكلة أخرى. قلت: أسردها وسأستمع كليا إليك فقد طويت الكتاب الذي كان مفتوحاً في يدي ولم أجد بعد نفعاً من قراءته بعد أن تيقنت أن لا مجال للهروب.. استأذنتهُ قليلاً بعد أن وضعت أمامنا أطباق الغذاء، قال لي ليس لي صبر كي أنتظر دعني أتكلم، تصور كيف سأنزل في مطار البصرة... سألتهُ وما الضير. قال: إن جوازي أجنبي وأسمي هناك في مالطا وفي الجواز "ثيودورو مانوليس" بعد أن كان اسمي "علوان عباس جفيت" وطفرت من فمي وقلت له للتندر وللفكاهة "وينك أو وين... ياعلوان" هو الأخر ضحك وقبلني وقال يمكن أنت إبن عمي فقلت له بصفة المثل أم بالتشابه وقد أثار حماستي وقلت له إبن وطنك والأوطان أقرب من الأب والأم والنسب والانتساب فالأوطان شيئ جمعي يلخص وجودنا فرادا وكيانات.

وبدأت فلسفتي عليه في معنى الأوطان والموت في الغربة وأوجزت له أحاديثا عن السياب والبياتي والجواهري وسعدي ومعاناة المئات من الأدباء والمثقفين ومعاناة هذا الشعب بأكمله مشفوعا بتاريخ الإحتلالات، ولم أجد ما ذكرت قد أثر به قيد أنملة لأنه يقاطعني بين الحين والحين بمفردة "صدق- أكو هيج" قال في المطار أي مطار البصرة سأعطي رشوة للشرطي الذي سيختم جوازي وسأتصل عند هبوطنا في البحرين بابن أخي "شاب سبع" ويعمل "مع الجماعة" كان وجههُ أصفر والآن كالتفاحة أرسلوا لي صوره إلى مالطا عبر الإنترنيت، عندما رفع الطعام سقطت حبيبات من الرز المحمر على بنطاله وراح ينكتها نكتاً بيديه، تأملت بنطاله الجينز وكان ماركة سبنسركما هو حذاؤه وبدأت أتطلع فيه "تي شيرته ذو علامة الغولف _ كاسكيت غطاء رأسه سواره الفضي وقلادته، وأنا أتناول الشاي بعد نظرة فاحصة قلت له مبتسما: كيف الحال ياثيودورو مانوليس شكلا وياعلوانَ مضمونا، تصور يا أخي لا أعلم كيف هي البصرة الآن أبنيتها شوارعها ناسها، لكن أكيد. أكيد أن الناس هناك لا زالوا طيبين، نخيلها كم بقي منه، وهل لازالت ساحة أم البروم؟ ولكي أداري حرقته بغير المتوقع سألتهُ: هل توفى شرهان كاطع، قال لي والدي الله يرحمه كان يجلب لنا كاسيتات ريفية من محل تسجيلاته، ووجدتها فرصة أن أساله عن من يتذكر من أصحاب الفكر والأدب في مدينة المدن وخاصرة العراق الدافئة فذكر لي من ذكر ولكنه رد عليَ: أخي لقد تركت البصرة منذ عشرين عاما ويقولون العالم يتغير لكن البصرة لن تتغير، هبطنا المنامة ليلا في مطارها الذي أتقصده في جميع رحلاتي ولابد أن أمر به. إستأذنني ثيودورو مانوليس وذهب الى W.C وجلست في إحدى كافتريات المطار أتناول القهوة وبعد برهة جاء رجل وقف فوق رأسي مرتديا دشداشة بيضاء وعقالا وينتعل خفا وسألني "ها .. إشلوني هسه" لم أصدق هذا ثيودورو وبادرني الأوطان لاتبدل، قال تصور هذه الفكرة أتت في بالي وأنا في مالطا وأشتريت هذه الحاجيات من أحد المحال القديمة في دمشق وحين سأنزل في مطار البصرة سينطبق عليَ المثل "ضاع أبتر بين البتران".

إتصل بإبن أخيه الذي مع الجماعة وأطمأن ساعتها وطلب لنفسه قهوة تركية ودار رأسه حين نظر إلى ساعته وقال الأن هي بالبحر، إستأذنته حين نودي على ركاب الطائرة المتجهة الى الدوحة وقلت في نفسي حتى الثرثرة أحيانا حاجات نفسية.

* موقع كتابات.